المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٢٧٧ ـ ٣١٦

البَكَوَاتُ المَمَالِيكُ فِي مِصْرَ مِنْ نِهَايَةِ الحَمْلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ حَتَّى مَذْبَحَةِ القَلْعَةِ ١٨٠١ ـ ١٨١١م

دِرَاسَةٌ فِي ضَوْءِ الوَثَائِقِ البِرِيطَانِيَّةِ غَيْرِ المَنْشُورَةِ

يوسف حسين يوسف عمر(*)

الملخص

تعتمد هذه الدراسة في مصادرها على الوثائق البريطانية غير المنشورة، التي تناولت الجهود التي بذلها البكوات المماليك من أجل إعادة نفوذهم وسلطتهم المفقودة في مصر؛ حيث استغلوا كل الظروف التي مرَّتْ بها مصر من أجل تحقيق ذلك الأمر، بما في ذلك الحملة الفرنسية، وما أعقبها من حالة ضعف وترهُّل لسلطات الدولة العثمانية في مصر، ولقد خاض البكوات المماليك الكثير من الحروب، كما دخلوا في مفاوضات عِدَّة مع الدولة العثمانية، وطلبوا من بريطانيا وممثليها في إستانبول ومصر الوساطة من أجل موافقة الدولة العثمانية على إعادة نفوذهم وسلطتهم في مصر، لكن الدولة العثمانية رفضت تمامًا القبول بمثل هذا الأمر، وإن سمحت لهم بالإقامة في الصعيد، وكان البكوات المماليك على استعداد للتحالف والاتفاق مع أيَّةِ قوة داخل مصر أو خارجها من أجل تحقيق آمالهم

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك، قسم التاريخ، «جامعة الأقصى»، غزة ـ فلسطين.

obeikandl.com

وطموحاتهم ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم قد فشلوا في ذلك بسبب الكثير من العوامل ، التي تمَّ الحديث عنها باستفاضةٍ خلال الدراسة ، لينتهي أمرهم فيما عُرِفَ باسم مذبحة القلعة عام ١٨١١م .

The Mamluk Beys in Egypt from the End of the French Campaign till the Castle Massacre 1801-1811 A Study in the Light of Unpublished British Documents

Abstract

This study is based on unpublished British documents sources that have dealt with the efforts external by the Mamluk Beys for regaining their lost power and influence in Egypt. Therefore, the Mamluk have exploited all the circumstances including the French campaign and the weakness of the Ottoman State authorities in Egypt. In this connection, the Mamluk Beys have launched a number of wars and engaged in negotiations with the Ottoman State. They have also called on British and its representatives in Istanbul and Egypt to intervene to regain their power in Egypt, but the Ottoman State has categorically rejected this request, even though it allowed them to stay in Upper Egypt. The Mamluk Beys have been willing to make an alliance or agreement with any force inside or outside Egypt for accomplishing their aspirations. Yet, they have failed to regain their previous power due to a number of factors that have been tackled extensively during this study ending up in what's called the Castle Massacre in 1811.

المقـدمة

خضعت مصر منذ انتصار الدولة العثمانية على المماليك في معركة الرَّيْدَانِيَّة عام ١٥١٧م للدولة العثمانية بشكل شبه كاملٍ، لكنَّ بقايا المماليك في مصر لم يُسَلِّموا بهذه السيطرة، وعملوا جُلّ جهدهم من أجل عودة نفوذهم وحُكمهم إلى مصر؛ لذلك فقد شكَّلوا قوة لا يُستَهان بها استغلَّتْ ظروف مصر المختلفة للعمل من أجل استرداد قوتهم وهيبتهم داخل البلاد، وكانت الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م بقيادة بونابرت (الذي أصبح إمبراطورًا على فرنسا باسم نابليون بونابرت الأول NAPOLEON BONAPARTE I منذ مايو ١٨٠٤ حتى أبريل ١٨١٤م) ـ وما أثارتْه من فوضى وخلْط للأوراق ـ فرصةً سانحة للمماليك لتحقيق مآربهم والتحرر من سيطرة الدولة العثمانية[١].

كانت الدولة العثمانية قد قررتْ إرسال جيشٍ عثمانيٍّ بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا إلى مصر لانتزاعها من أيدي الفرنسيين، وكان من ضمن كتائب هذا الجيش وتشكيلاته الكتيبة الألبانية، التي كان يرأسها ابن حاكم قولة KAVALA علي أغا، بينما كان محمد علي (حاكم مصر منذ مايو ١٨٠٥ حتى مارس ١٨٤٨م) نائب رئيس الكتيبة الألبانية، التي كان قوامها ٣٠٠ جندي، ولم تكد تصل هذه الكتيبة ميناء أبو قِير في مصر في ربيع عام ١٨٠١م، حتى قرَّرَ ابن حاكم قولة أن يعود إلى بلده، فأصبح محمد علي قائد الكتيبة[٢].

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر وانسحابها عام ١٨٠١م، تحت ضغط الهجوم البريطاني العثماني وثورات المصريين المستمرة، وصلت أخبار هذا الانتصار

---

(١) MARSOT, AFAF LUTFIAL-SAYYID, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, Cambridge-Cambridge University Press, 1994, p.29-31; Cleveland. *A History*, p.119.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Fox, Alexandria.*, 19 June 1800.

إلى كل القوى الموجودة في مصر، واعتقد المماليك حينها بإمكانية العودة إلى ساحة الأحداث من جديد، لذلك قام محمد بك الألفي ـ أحد أكبر زعماء المماليك ـ بإرسال مبعوث إلى إستانبول ليناقش مع الوزراء العثمانيين مسألة عودة حكم المماليك من جديد في مصر[١]، إلا أن المماليك لم يكُونوا موحَّدِين آنذاك، حيث انقسموا إلى فريقَيْن، أحدهما إلى جانب القوات العثمانية العائدة إلى مصر بقيادة إبراهيم بك الكبير، والآخر إلى جانب الإنجليز بقيادة محمد بك الألفي[٢]، ولم يمضِ وقت طويل حتى انسحب الإنجليز من مصر وفق معاهدة أميان Treaty of Amiens مع فرنسا في ٢٥ من مارس ١٨٠٢م[٣]؛ الأمر الذي أفضى إلى فترة من الفوضى نتيجة الصراع بين العثمانيين، الراغبين في أن تكُون لهم سلطة فعلية لا شكلية على مصر، وعدم العودة إلى الحالة التي كان عليها حكم مصر إبان حكم المماليك، والمماليك الذين رأَوْا في ذلك سلبًا لحقٍّ أصيلٍ من حقوقهم، ولقد شمل ذلك الصراع مجموعة من المؤامرات والاغتيالات في صفوف الطرفين، راح ضحيتها أكثر من والٍ من الولاة العثمانيين[٤].

ولقد استخدم محمد علي قواته الألبانية للوقيعة بين الطرفين المتنافسين، وإيجاد مكان له على مسرح الأحداث، كما أظهر تودُّدَه إلى كبار رجالات مصر وعلمائها من خلال مجالستهم والصلاة وراءهم، وإظهار العطف والرعاية تجاه

---

(١) MARSOT, *Egypt*, p.36-7.

(٢) ANNESLEY, GEORGE, *Edinburgh-Pentland Press*, 1994, p.21.

(٣) *The Rise of Modern Egypt, A Century and a half of Egyptian History 1798-1957 Little*, Tom Egypt, New York-Frederick A. Praeger, 1958, p.57.

(٤) VATIKIOTIS, PANAYIOTIS, J., *The History of Egypt, Baltimore-Orion Publishing Group,* 1985, p.51.

متاعب الشعب المصري وآلامه ؛ مما أكسبه ود المصريين[١] ، لكنَّ الأمور لم تكن قد استتبَّتْ تمامًا في مصر بسبب بقاء الوجود البريطاني فيها ، حيث أرسل السفيرُ البريطاني في إستانبول توماس بروس ، المعروف باسم إيرل إلجن السابع THOMAS BRUCE, 7th EARLOF ELGIN (مارس ١٧٩٩ حتى يوليه ١٨٠٣م) إلى وزير خارجية بريطانيا روبرت جينكينسون ، المعروف باسم لورد هوكسبري ROBERT JENKINSON, LORD HAWKESBURY (فبراير ١٨٠١ حتى مايو ١٨٠٤م) ، بتاريخ ١٣ من نوفمبر ١٨٠٢م ، رسالةً يخبره بأنه تلقَّى رسائل تفيد بأن الكولونيل الفرنسي هوراس سباستياني HORACE SEBASTIANI (نوفمبر ١٧٧١ حتى يوليه ١٨٥١م) وصل على ظهر فرقاطة فرنسية إلى الإسكندرية ، حيث طلب على الفور مقابلة قادة الجيوش البريطانية في مصر ، وأكد سباستياني أنه جاء مبعوثًا لفرنسا ، وأنه أُمِرَ بأن يعرف السبب وراء بقاء بعضٍ من القوات البريطانية في مصر حتى ذلك الوقت ، وعبَّر عن قلقه مما أسماه عدم انْصِياع بريطانيا لمعاهدة أميان ، وأن ذلك سوف يؤدي إلى فقدان الثقة بين الحكومتين[٢] .

موقف الدولة العثمانية من بقاء البكوات المماليك في مصر

أوضح سفير بريطانيا في إستانبول إلجن أن شئون مصر أصبحت مؤخرًا موضوعَ الاتصالات بينه وبين المبعوثين العثمانيين ، كما أوضح أنه كان مدعُوًا من قِبَل بعض وزراء الحكومة العثمانية ، حيث تَمَّتْ مناقشة موضوع البكوات المماليك بشكل كافٍ . ومن حيث الظروف التي زار فيها سباستياني مصر ومهمته بها فإن هذه المناقشات لم تَقُدْ إلجن لأي أمل بشأن تنازل الحكومة العثمانية عن قرارها السابق

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople,* 13 Nov. 1802, No. 48.

(٢) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople,* 16 Nov. 1802, No. 49.

بطرد البكوات المماليك من مصر ، أو أنها واعية بطبيعة مهمة الكولونيل سباستياني في القاهرة[١] ، ويبدو أن سباستياني استغل فترة وجودِهِ في القاهرة فتقدَّم باقتراحٍ ما إلى الحكومة العثمانية ، ورغم أن الوثيقة لا تُظْهِر فحوى هذا الاقتراح فإن إلجن اعتبر أن هذا الاقتراح منحاز إلى جانب البكوات المماليك ، ثمَّ تقدم سباستياني من القاهرة إلى دمياط عارضًا وساطته أيضًا بين والي عَكَّا أحمد باشا الجزار (١٧٨٠ - ١٨٠٤م) والباب العالي لتسوية المشاكل بينهما ، في محاولةٍ لتحقيق نفوذٍ مؤثِّرٍ في مصر[٢] .

في الوقت نفسه أرسل إلجن إلى وزير الخارجية البريطاني لورد هوكسبري يُخْبِره بأن الباب العالي قد اختار صدقي أفندي ليكون مبعوثًا ذا صلاحية بغرض مناقشة كل الظروف المتعلقة بالبكوات المماليك مع حكومة بريطانيا ، ومِن وجهة نظر إلجن فإن صدقي أفندي لم يشغل أي منصبٍ رفيعٍ داخل الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت ، لكنَّه يتمتع منذ مدة طويلة بثقة السلطان سليم الثالث (أبريل ١٧٨٩ حتى مايو ١٨٠٧م)[٣] ، كما أكد إلجن أنه تحت ضغط الظروف الخاصة الموجودة في مصر فإنه يعتبر أنَّ مِن واجبه أن يستخدم كل وسائل التعبير لكي ينصح الباب العالي بخطورة طرد البكوات المماليك من مصر ، كما قدَّم إلجن عرضًا يتلخَّص في أن الباب العالي يجب أن يعترف بالوضع الحقيقي للحالة السائدة في مصر ، ويَقبل بأيَّة ترتيبات تؤدي إلى التصالح بين الطرفين طبقًا لخطة حكومة ملك بريطانيا جورج الثالث GEORGE III (أكتوبر ١٧٦٠ حتى يناير ١٨٢٠م) ، وأوضح إلجن أنه سوف يذهب بذلك الاقتراح إلى الإسكندرية ، وأنه سيتعاون مع ضابط البحرية

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople,* 30 Nov. 1802, No. 60.

(٢) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople, 30 Nov. 1802, No. 61.

(٣) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople, 30 Nov. 1802, No. 62.

البريطانية وليام ستيوارت WILLIAM STEWART (يناير ١٧٧٤ حتى يناير ١٨٢٧م) من أجل تبنِّي هذا الاقتراح[١].

ولقد أخبر إلجن هوكسبري بتاريخ ٧ من ديسمبر ١٨٠٢م بأن محمد بك الألفي ومعه ٦ آلاف من المماليك تقدَّموا نحو الإسكندرية وسيطروا عليها، وأصدر الألفي منشورًا موجَّهًا إلى العرب؛ مانعًا إياهم من دفْع أيَّة ضريبةٍ إلى الحكومة العثمانية، وأن جزءًا آخر من المماليك دخلوا مدينة الجيزة، وأن خورشيدباشا حاكم الإسكندرية العثماني كان قد تنبَّأ بذلك وأخبر ستيوارت به قبل أن يحدث بعشرة أيام[٢]، وعلى الرغم من أن الضباط الإنجليز في مصر قاموا بحماية البكوات المماليك فإن هؤلاء كانوا لا يزالون يتوسَّلون للسماح لهم بالبقاء في بعض أجزاء القُطر المصري، ومع ذلك فإن الباب العالي قرَّر ألا يُسْمَحَ لهم بذلك، وهو القرار الذي سمعَتْ به كل القوى وفئات المجتمع داخل مصر[٣].

تغيُّر الموقف العثماني من بقاء البكوات المماليك

كان التصعيد في المواقف بين الدولة العثمانية والبكوات المماليك هو ما دفع إلجن إلى سؤال الوزراء الأتراك عما إذا كانوا قد توصلوا إلى حل بشأن البكوات المماليك أم لا، ولقد أعلن الوزراء العثمانيون مجددًا أن موقف الباب العالي، الذي كان دائمًا ضد بقاء البكوات المماليك في مصر، لا يزال الموقف السائد، لكن بالأخذ في الاعتبار الارتباط القائم بين الضباط البريطانيين والبكوات المماليك، ورغبة الحكومة البريطانية في القيام بواجباتها تجاههم؛ فإن الباب العالي يُبدي رغبته

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople. 10 Dec. 1802, No. 62.

(٢) F. O. 78-38, *Note de la Porte,* 5 Jan. 1803, Translated.

(٣) F. O. 78-38, *Minutes of the Conference held with the Reis Effendi on 3 Jan.* 1803.

في إعطاء البكوات المماليك إقليم أسوان فقط للإقامة فيه[١] ، وهو الأمر الذي بعث على السعادة والرضا التام عند إلجن ، لأن الباب العالي قد أذعن أخيرًا «إلى مشيئة ملك بريطانيا» ، وذلك من خلال السماح للبكوات المماليك بالبقاء والعيش داخل مصر ، وتخصيص مقاطعة لهم من أجل الإقامة فيها[٢] .

أمَّا فرنسا فلم تكن غائبة عن ساحة الصراع بين الدولة العثمانية والمماليك ؛ حيث قام السفير الفرنسي في إستانبول غليوم ماري ـ آن برون GUILLAUME MARIE - ANNE BRUNE (١٨٠٢ ـ ١٨٠٦م) بعدة زيارات ودية للوزراء الأتراك والشخصيات البارزة في الحكومة العثمانية بإستانبول ، وكان الغرض من هذه الزيارات البعْث على الاعتقاد في أنحاء أوروبا بالأهمية العظيمة لمهمته ، وإثبات قدرته الفائقة في التأثير على الباب العالي ، كما أراد برون أن ينتهز هذه الفرصة للإسهاب في الحديث عما تتمتع به فرنسا من قوة وثروة وموارد هائلة ، وما تحتله الجمهورية الفرنسية الجديدة وحلفاؤها من مساحات شاسعة من الأراضي في أوروبا ، كما سيعلن برون عن النيات الحسنة لنابليون بونابرت تجاه الباب العالي ، بينما يَرثي لحال الحكومة العثمانية بسبب تردي أوضاعها وتمزقها بين الباشوات والبكوات المماليك المتمردين ، كما سيستغل برون هذه الفرصة ليعْرِض مساعدة الجمهورية الفرنسية على الحكومة العثمانية في قمْع الاضطرابات ، التي تشهدها عدة أجزاء من الأراضي العثمانية ، مما يعني ضمنيًا مساعدتها في ضبْط أوضاع مصر[٣] .

ومهما كانالأمر فقد كان واضحًا أن البكوات المماليك المحميين من بريطانيا قد أصبحوا في مَأْمَنٍ من أي انتقام بعد موافقة الدولة العثمانية على إبقائهم في أسوان ،

---

(١) F. O. 78-38, *Elgin to Hawkesbury*, Constantinople, 15 Jan. 1803, No. 73.

(٢) F. O. 78-39, *Stratton to Hawkesbury*, 10 March 1803, No. 6.

(٣) F. O. 78-39, E. MISSETT to A. STRATTON, *Alexandria.*, 12 March 1803.

خاصة بعد زيادة الضغوط الفرنسية ، التي تطالب بريطانيا بالانسحاب الكلي من مصر ، وقد يكون ذلك سببًا في صدور الأوامر والتعليمات بإجلاء الجيش البريطاني عن مصر ، مع بقاء أرنست ميسيت ERNEST MISSETT الذي تم تعيينه مقيمًا لبريطانيا في مصر (مارس ١٨٠٣ - سبتمبر ١٨٠٧م)[١] .

قامت حكومة بريطانيا بتعيين ألكسندر ستراتون ALEXANDER STRATTON قائمًا بالأعمال البريطانية في إستانبول The British Charge d'Affaires إلى حين تعيين سفيرٍ جديدٍ بدلًا من إلجن . وفي ٢٢ من مارس ١٨٠٣م أرسل ستراتون إلى هوكسبري بأنَّ مبعوثًا تركيًا عاد من الإسكندرية في ١٩ من مارس ١٨٠٣م ، وقد أحضر إلى الباب العالي أخبارًا عن اتفاق قد تمَّ بين قيادة أركان القوات البريطانية المتبقية في مصر والبكوات المماليك ، مفادُهُ أن الكثيرين من قادة المماليك ، ومن ضمنهم الألفي بك ، سوف يتركون مصر ويعيشون في بلد آخر غير محدَّدٍ ، لكنه لن يكون تحت سيطرة فرنسا[٢] ، ولا يُعرف في حقيقة الأمر صحة هذه الأخبار ، لكن الرسائل البريطانية ، حتى ذلك الوقت ، كانت تؤكد أن المماليك الذين عادوا إلى صعيد مصر ثانية كان يبدو أنَّ لديهم النيَّة للقيام بأعمال عدائية ضد الدولة العثمانية ؛ حيث قاموا بقطع الإمدادات من صعيد مصر إلى القاهرة ، وهو ما يهدِّد بحدوث نقصٍ بالمؤَن في القاهرة ، التي وقعت في أيدي الجنود الألبان الذين أحكموا السيطرة عليها[٣] .

قامت بريطانيا بتعيين وليام دراموند WILLIAM DRUMMOND (١٨٠٣ - ١٨٠٤م) سفيرًا جديدًا لها في إستانبول ، ولقد شَكَّكَ دراموند في إمكانية بقاء

---

(١) F. O. 78-39, *A. Stratton to Hawkesbury,* Pera, 22 March 1803, No. 7.

(٢) F. O. 78-39, *Extract of a letter addressed Mr. Edward Lee, an ancient Smyrna Merchant in the city to Sir John Cox Hippisley,* Alexandria, 4 May 1803.

(٣) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere,* 7 June 1803, No. 2.

البكوات المماليك في مواقعهم ، التي تمَّ تحديدها لهم ، في الوقت الذي وصلتْهُ أخبار تفيد بأن البكوات المماليك في طريقهم إلى القاهرة ، وأنهم أصبحوا على مسيرة يومَيْنِ منها ، أمَّا بشأن ثورة الألبان فيؤكِّد دراموند أن قرار الباب العالي بهذا الشأن لابد أن يشغل اهتمام الحكومة البريطانية إلى أقصى درجة ؛ ذلك أن هذا الحدث المؤسف يمكن أن يؤدِّي إلى تدهور الأوضاع في مصر بصورة كبيرة مجددًا ، وأكَّد دراموند أنه حتى ذلك الوقت كان الباب العالي لا يزال يبحث التدابير والوسائلالتي يتعيَّن اتباعُها لقمع ثورة الألبان ، مؤكدًا أن مصر أصبحت عُرضة للضياع من بين يدي الباب العالي ما لم تُسْرِع قوة أجنبية ما إلى نَجْدة الأتراك ، ويرى دراموند بطبيعة الحال حتمية تدخُّل بريطانيا في هذا الأمر ؛ شريطة أن يقوم الأتراك بتخصيص مدينتَي الإسكندرية ورشيد قاعدتَيْنِ للجيش البريطاني ، مقابل تعهُّد بريطانيا بحفظ بقية أراضي مصر للباب العالي[١] ، ويبدو أن البكوات المماليك لم يُضيِّعوا هذه الفرصة الناتجة عن تدهور الأوضاع في مصر ، حيث وصلت أنباء إلى الباب العالي تفيد باستيلاء البكوات المماليك على القاهرة ، وأن الباب العالي يعتزم حَمْلَهم على دفْع الجِزْيَة من أجل ترْك القاهرة بحَوْزَة الدولة العثمانية[٢] .

زيارة الألفي بك إلى بريطانيا وأثرها على الدولة العثمانية

قام زعيم المماليك محمد بك الألفي برحلة إلى بريطانيا ، الأمر الذي أثار قلق الباب العالي بصورة شديدة ، بينما عملت فرنسا للإفادة من هذا الحدث من أجل تعزيز مكانتها في الدولة العثمانية ومصر ، رغم تأكيد دراموند بأن الألفي بك لم

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 25 June 1803, No. 7.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 11 July 1803, No. 12.

يتم استقباله في بريطانيا إلا بصفته شخصًاغريبًا ، وأنَّه لم يتلقَّ سوى واجبات الضيافة المتعارَف عليها هناك عند استقبال الغرباء[١] ، لكن قضية زيارة الألفي بك إلى بريطانيا كانت لا تزال تثير حنق الدولة العثمانية ؛ لذلك فقد كتب هوكسبري إلى دراموند في ١٨ من أكتوبر ١٨٠٣م ، قائلًا : «إنه تفاديًا لأيَّة شائعات غير صحيحة قد تصل إلى الحكومة العثمانية بشأن زيارة الألفي بك ، فإن الأخير قام بهذه الزيارة دون علم أو تصريح من الحكومة البريطانية ، وأكد هوكسبري عزْم حكومة بريطانيا الثابت والأكيد على عدم الاستماع إلى أيَّة عُرُوض أو مقترحات من جانب الألفي بك ، من شأنها أن تؤثر على مصالح أو حقوق السلطان العثماني في مصر»[٢] .

دراموند ومحاولة اقتراح الحلول بين الأطراف المتنازعة

وصلَتْ أنباء غير مؤكَّدَةٍ عن وصول علي باشا النائب الجديد للسلطان في مصر إلى الإسكندرية ، لكنَّ المؤكَّد كان وصول رسائل تشير إلى أن المماليك يسيطرون على ضواحي القاهرة ، في الوقت الذي كان الألبان لا يزالون يسيطرون فيه على القلعة[٣] ، ووفقًا للأخبار الواردة من مصر ، يبدو أن البكوات المماليك والألبان الثائرين قد أحكموا سيطرتهم على مصر بأكملها ما عدا الإسكندرية ، وفي هذا الوقت العصيب وصل علي باشا النائب الجديد للسلطان إلى مصر وبرفقته بضع مئات من الرجال فقط ، وعلى الرغم من ذلك فقد أدَّى هذا الأمر إلى دفْع بعض كبار البكوات المماليك إلى إرسال رسائل إلى إستانبول تفيد استعدادهم للخضوع لسلطة السلطان العثماني ، ويبدو أن هذا الولاء

---

(١) F. O. 78-40, W. Hawkesbury to Drummond, *Dawning Street*, 18 Oct. 1803.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 27 July 1803, No. 15.

(٣) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 9 Aug. 1803, No. 16.

المشكوك فيه قد حاز على رضا الباب العالي[١].

أخبر دراموند هوكسبري في ٩ من سبتمبر ١٨٠٣م بأنه كان مكلَّفًا على مدى الأسبوعين الماضيين بمراسلة الباب العالي والاشتراك مع الوزراء العثمانيين في إيجاد السُّبل والوسائل الدفاعية المُثلى، التي تفرضها الأوضاع في مصر، وما آلَتْ إليه الأمور في الدولة العثمانية، وكان في مقدمة الأمور التي تحظى باهتمامٍشديدٍ القضاءُ على الحركة الوهَّابيَّة، واستتباب الأمن في مصر التي تردَّتْ فيها الأوضاع إلى حدٍّ بعيدٍ[٢]، ومن ذلك أن قوات الجيش التي يقودها عثمان بك البرديسي لم تتسلَّم رواتبها منذ ثلاثة أشهر، في الوقت الذي أدَّى فيه فرْض الضرائب الباهظة في رشيد ودمياط وسائر قرى دلتا مصر إلى تمرُّد القوات داخل معسكراتها قرب دمنهور، حيث أعلنت هذه القوات امتناعها عن أداء مهامها حتى يتم دفْع مستحقاتها المتأخرة، وقد وقعت مشادات بين الألبان والمماليك، حيث قُتل العديد من المماليك، ولولا تدخُّل محمد علي زعيم الألبان لكان من الممكن وقوع اشتباك عام بينهم وبين المماليك[٣].

لم يطرأْ على الأوضاع في مصر بين ٣٠ من سبتمبر حتى ٢٥ من أكتوبر ١٨٠٣م أي جديد؛ باستثناء قيام الباب العالي بعرْض شروط التسوية على البكوات المماليكالذين لم يُصْدَرْ عنهم أيُّ رد فعلٍ تجاهها، لكن دراموند حذَّر في ٢٥ من أكتوبر ١٨٠٣م من استقلال المماليك في مصر، «وما يشكِّلونه من خطر على مصالح بريطانيا، حيث أثبتت التجارِب أنهم أشبه بعصابة من الخَوَنَة واللصوص وقُطَّاع الطرق الذين لا هَمّ لهم إلا تحقيق مآربهم الخاصة أيًا كانت هُوِيَّة

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 9 Sep.1803, Separate

(٢) F. O. 78-41, E. Missett to Drummond, Cairo, 30 Sep.1803.

(٣) F. O. 78-41, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 25 Oct. 1803, No. 22.

القوة التي يستعينون بها ويوالونها» ، وأبدى دراموند خشيته من لجوء المماليك إلى الجيش الفرنسي لنُصْرتهم إذا ما دارتْ عليهم الدوائر ؛ لذلك فقد رأى دراموند «ضرورة الحفاظ على مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ، التي اعتبرها بمثابة حليف لبريطانيا»[١] ، ويبدو أن توقعات دراموند كانت في محلها ، حيث أرسل إلى هوكسبري يُخبِره بإقبال البكوات المماليك الزائد على طلب المشورة الفرنسية ، وأنه لم يتلقَّ أي تعليمات أو توصيات تُخَوِّله سلطة عرْض الوساطة البريطانية لتسوية النزاع بين الباب العالي والبكوات المماليك ، لكنه غامر واقترح تسوية تمَّ إقرارها تقريبًا ، ويشير دراموند إلى أنه بموجب خطة التسوية التي اقترحهاسوف يتم تعيين باشا تركي جديد في مصر مع ترْك القاهرة بحوزة المماليك ، وسحْب الثوار الألبان من مصر ، واعتبر دراموند أن هذه الخطة تُعد مكسبًا عظيمًا للحكومة العثمانية ، وأنه في ظل هذه الظروف يتعيَّن على بريطانيا تأمين السيادة على مصر للباب العالي حمايةً لمصالحها ، خاصة بعد تواصل البكوات المماليك مع فرنسا طلبًا لمساعدتهم في مصر[٢] .

ومهما كان الأمر فقد أرسل دراموند إلى هوكسبري في ٧ من نوفمبر ١٨٠٣م ، يُخبِره بأن المعاهدة التي أبرمها بين البكوات المماليك والحكومة العثمانية تنص على :

١ ـ إعادة إقرار كل حقوق المماليك وامتيازاتهم في مصر .

٢ ـ تعيين إبراهيم بك شيخًا للبلد ، وأن يقيم في القاهرة هو وغيره من البكوات المماليك .

٣ ـ دفْع الدخل الحكومي القديم من الضرائب على الجمارك للباب العالي ،

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 6 Nov. 1803, No. 23.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 7 Nov. 1803, No. 40.

على أن يقوم بجبايته موظفٌ تركي .

٤ ـ إعادة فرْض ضرائب الخدمة الاسمية لمكة والمدينة المنورة .

٥ ـ أن يقيم نائب السلطان في الإسكندرية .

وأكد دراموند مجددًا في هذه الرسالة ضرورة كبْح نفوذ البكوات المماليك وسلطانهم في مصر ، وأمْله في أن يتمكّن الباب العالي من استعادة سلطانه الضائع هناك ، وذلك حماية للمصالح البريطانية[١] ، لكن الأمور من وجهة النظر العثمانية ربما كانت مختلفة عما كان سائدًا في بريطانيا ؛ حيث أبلغ ناظر الخارجية العثماني ريس أفندي دراموند «أن الأوضاع في مصر قد استقرت بصورة نهائية» ، لكن دراموند أكّد «أنه أبعد ما يكون عن التعلّق بأيّة آمال وردية بهذا الشأن» ، كما أخبر دراموند ريس أفندي بأنه يرتكب خطًا بعدم الإصرار على تعيين حكام أتراك على المدن كافة ، التي تضم موانئ في مصر ، من أجل تعزيز الدولة العثمانية سلطتَها في هذه المناطق[٢] . وفي السياق نفسه كتب ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ٢٥ من نوفمبر ١٨٠٣م بأنه لا أمل في عودة الهدوء والاستقرار إلى مصر طالما بَقِيَتْ مقسَّمَة بين البكوات المماليك والأتراك ، كما تحدَّث عن ضرورة تدخُّل قوة عسكرية تابعة لقوة ثالثة لردْع الطرفين وإلزامهما جادَّة الصواب[٣] .

أمَّا دراموند فقد أشار إلى سوء الأوضاع في مصر منذ جلاء القوات البريطانية عنها ، وما تلا ذلك من أحداث أضعفت الحكومة العثمانية وأنهكَتْ قواها ، وهو الأمر الذي شغل حيّزًا هائلًا من اهتمام حكومة بريطانيا ، ولعل ما بذله ملك بريطانيا جورج الثالث من جهود كبيرة لتخليص مصر من أيدي الفرنسيين وإعادة

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Buyukdere, 16 Nov. 1803, No. 26.

(٢) F. O. 78-41, A. Stratton to Hawkesbury, Buyukdere, 25 Nov. 1803, No. 2.

(٣) F. O. 78-40, F. O. to Drummond, Downing Street, 20 Dec. 1803, No. 4.

السلطان المطلق على مصر للحكومة العثمانية، يعطي ملك بريطانيا الحق في التدخُّل بأية كيفية تتراءى له لتحقيق الأمن الدائم لهذه البقعة المهمة من العالم، من منطلق التوافق التام بين اهتمامات ملك بريطانيا واهتمامات الباب العالي، كما أشاد ملك بريطانيا بدور البكوات المماليك في دعم الجهود البريطانية والعمل على نجاحها، وحقهم في العَيْش الكريم في مصر[١]، لذلك فقد ضغطت بريطانيا على الدولة العثمانية مجددًا من أجل بقاء البكوات المماليك في مصر، الأمر الذي تمخَّضتْ عنه موافقة الحكومة العثمانية على إعادة ترتيب مسألة وجود البكوات المماليك في مصر[٢].

ولقد أظهر النائب الجديد للسلطان في مصر علي باشا قليلًا من الاحترام للحكومات الأوروبية وقنصلياتها في مصر، ولم يعترف اعترافًا كاملًا بحقوقهم وامتيازاتهم، حتى أنهم بدأوا بالرحيل عن الإسكندرية، حيث وَجَدَ الأجانب أنفسهم غير آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم في مدينة الإسكندرية، لكن علي باشا سرعان ما أدرك خطأه «الفادح» الذي ارتكبه، لذلك قرَّر الدخول في مفاوضات مع الأجانب حتى لا يرحلوا عن مصر[٣].

أمَّا وزارة الخارجية البريطانية فقد أرسلت إلى دراموند في ٢٠ من ديسمبر ١٨٠٣م رسالة حول تصورات ملك بريطانيا في ظل الأوضاع القائمة في مصر، التي تدعو إلى ضرورة تعيين بعض الأشخاص الموثوق بهم للإقامة في مصر، من أجل جمع المعلومات حول أيَّة أعمال عدائيَّة قد يقوم بها الأعداء، وتقديم النصْح والمشورة وكل المساعدات الممكنة إلى الحكام الأتراك في هذه المنطقة[٤].

---

(١) F. O. 24-2, Briggs to Hawkesbury, Alexandria, 10 Dec. 1803.

(٢) F. O. 24-2, Briggs to Hawkesbury, Alexandria, 10 Dec. 1803.

(٣) F. O. 78-40, F. O. to Drummond, Downing Street, 20 Dec. 1803, No. 5.

(٤) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 Jan. 1804, No. 3.

انطلاقًا من أنَّ بريطانيا كانت مهتمة بوجود النفوذ العثماني في مصر، فقد أرسل ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ١٠ من يناير ١٨٠٤م يُخبِره أنه تسلَّم رسالة من ميسيت، التي ذَكَر له فيها نجاح جهوده في الوقيعة بين البكوات المماليك والفرنسيين، حيث اكتشف الفرنسيون التحول الجليّ في سلوك البكوات المماليك تجاههم، وأكد ميسيت أن البكوات المماليك كانوا قد طلبوا الحماية من فرنسا، لذلك فقد نظرت الحكومة الفرنسية إلى سلوكهم بأقصى الغرابة في لحظة ضيقٍ ونفاد صبرٍ، زاد من وَقْعِها تجاهل البكوات المماليك المفاجئ للقنصل الفرنسي في مصر، بعد أن كتبوا إليه ليستنجدوا بفرنسا ويناشدوها عدم التخلي عنهم، ويشير ستراتون إلى ما ذكره ميسيت في رسالته من تردِّي الأوضاع في مصر، حيث عمد البكوات المماليك إلى استخدام وسائل العنف والتعسُّف في جمع الضرائب الباهظة من المواطنين والمقيمين في مصر، كما عمَّ الفساد وانتشرت جرائم القتل والسرقات وخطف النساء في وضح النهار، مما أثار مشاعر الغضب والاستياء والتذمر لدى المسلمين والمسيحيين في مصر على حدٍّ سواء[1].

الدولة العثمانية ومحاولة فرض سيادتها على مصر

صدر فرمان سلطاني في ذلك الوقت موجَّهٌ من السلطان العثماني إلى علي باشا، وقاضي مصر وشيخ البلد إبراهيم بك، وعثمان بك البرديسي، والبكوات الآخرين، ومفتيي المذاهب الدينية الأربعة، والعلماء والأمراء وضباط المؤسسات العسكرية، والمحامين والوكلاء بالقاهرة؛ جاء فيه: «فليكن معلومًا وواضحًا للجميع أن كل إيرادات الضرائب ومصادر الدخل العام والعقود في مصر تعود

---

(١) F. O. 78-42, *Telegram of an Imperial Ferman addressed to the Pasha of others in Egypt*, 20 Jan 1804.

ملكيتها وإدارتها إلى الباب العالي ، وقد تم إصدار وإرسال العديد من المراسيم السلطانية ، التي تتضمن الأوامر والتنظيمات واللوائح الخاصة بذلك ، وكانت الحكومة العثمانية قد اتخذت كل الترتيبات والاستعدادات برًا وبحرًا لإعادة النظام والاستقرار إلى مصر باستخدام القوة ، لكن استجابةً للالتماس الذي تقدَّم به البكوات المماليك يرجون فيه العفْو عما سلف منهم ، وتعهُّدهم برفْع أيديهم عن مصادر الدخل العام في مصر ، وأن يمتنعوا مستقبلًا عن اتِّباع سياسات مناهضة للحكومة العثمانية ؛ فقد أصدرنا عفوًا عامًا عن البكوات مؤخرًا وقمْنا بإرساله إليكم لتنفيذه»[١] .

ويتضح مما سبق أن السلطان العثماني كان يتَّبعُ سياسة الترهيب والترغيب في تعامله مع البكوات المماليك في مصر ، في الوقت الذي تواترتْ فيه الأخبار عن اعْتزام بريطانيا القيام باحتلال الإسكندرية للحفاظ على مصالحها في مصر ؛ مما دفع ستراتون إلى إعلان عدم اعتزام حكومة بريطانيا الاستيلاء على الإسكندرية ، لكنَّه أوضح أن أفضل طريقة للقيام بذلك أن يطلب السلطان العثماني من القوات البريطانية احتلال الإسكندرية ، وهو ما كان ستراتون قد اقترحه على الريس أفندي من أجل حفْظ الهدوء والاستقرار العام والدفاع عن مصر ضد أي هجوم فرنسي متوقَّع ، وحسب ستراتون فقد اعترف الريس أفندي بأن احتلال القوات البريطانية للإسكندرية سوف يخدم المصالح الحقيقية للباب العالي[٢] .

ولقد غادر علي باشا الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة ـ التي يسيطر عليها البكوات المماليك ـ على رأس قوةٍ تتألَّف ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ جندي ، مما هدَّد بالاحتكام إلى السلاح مجددًا[٣] ، في استعراضٍ أشبه بالاستعراض الحربي ،

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 21 Jan. 1804, No. 4.

(٢) F. O. 78-42, Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 Feb. 1804, No. 7.

(٣) F. O. 78-42, *Extract of a letter from Briggs to Stratton,* Alexandria, 29 Jan. 1804.

لكن مخططاته أُحبطت على أيدي البكوات المماليك ، فلم يَلْحَقْ به سوى «الخزْي والعار» ، بعد أن تمَّ نزْع أسلحة قواته دون مقاومة وطرْدهم خارج مصر . وكان البكوات المماليك قد وافقوا سابقًا على استقبال علي باشا وأسرته في القاهرة ، لكنهم عادوا ووضعوه رهْن الاعتقال بعد أن اكتشفوا «مخططاته السرية لاستمالة الألبان للانضمام إليه» ، لذلك قرر البكوات المماليك إرسال علي باشا إلى حدود العريش ، ومن هناك سوف يكون حرًا في المُضي إلى يافا ومنها إلى إستانبول[١] .

قامت وزارة الخارجية البريطانية بتعيين تشارلز لوك CHARLESLOCK (١٧٧٠ - ١٨٠٤م) قنصلًا عامًا لبريطانيا في مصر ، حيث أرسلت إليه رسالة بتاريخ ٣٠ من يناير ١٨٠٤م تطلب منه عند الوصول إلى مصر أن يقدِّم نفسه إلى علي باشا ويبلغه بأن تعيينه قنصلًا عامًا في مصر إنما جاء لمصلحة بريطانيا ومصر ، وفيما يتعلق بالصراع بين البكوات المماليك وعلي باشا فقد أكَّدت وزارة الخارجية لتشارلز لوك ضرورةَ ملاحظة الأمور بينهما بدقةٍ ، وألَّا يُعطي انطباعًا لأي طرف بأنه منحازٌ إلى الطرف الآخر ، كما أكدت وزارة الخارجية البريطانية له ضرورةَ إرسال التقارير السرية إليها بكل وسيلة ، حتى إذا تطلب الأمر إرسال مبعوث خاص إذا كان الأمر مهمًا جدًا[٢] .

ومهما كان الأمر فقد عبَّرت حكومة بريطانيا عن شديد الأسى والأسف لتردِّي الأوضاع في مصر وانتشار الاضطرابات والفوضى فيها منذ رحيل القوات البريطانية عنها ، خاصة بعد أن أصبح البلد بأكمله ، باستثناء الإسكندرية ، بحوزة البكوات المماليك الذين لا يمكن إجبارهم أو حتى إقناعهم بقبول التسوية التي تمَّ إبلاغهم بها منذ ٤ أشهر ، في الوقت ذاته الذي يلتمس البكوات المماليك من

---

(١) F. O. 24-2, F. O. to Charles Lock, Downing Street., 30 Jan. 1804, No. 1.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to B. Pisani, Pera, 17 Feb. 1804.

حكومة بريطانيا الوساطة واستخدام مساعيها الحميدة لتسوية الخلافات بينهم وبين الحكومة العثمانية بصورة وُدِّيَّة. ويرى ستراتون أن الباب العالي سوف يفقد سلطانه على مصر لا مَحَالة إذا لم يتم التوصل إلى تسوية سِلْمِية بينهم وبين البكوات المماليك سريعًا، وقبل أن يمتد سلطانهم إلى الإسكندرية، خاصة أن القوات الألبانية التي أرسلها السلطان العثماني إلى هناك لا يُؤْمَنُ جانبُها، ولا يمكن الوثوق في ولائها. ويشير ستراتون في الوقت نفسه إلى أن حرْص حكومة بريطانيا على إبقاء السيادة العثمانية على مصر نابعٌ من الصداقة المنزَّهة عن أي أغراض، التي تربط بينهم وبين السلطان العثماني، لكن ستراتون يعترف بأن الإبقاء على السيادة العثمانية على مصر يخدم مصالح بريطانيا، التي تحرص كل الحرص على منع الفرنسيين من غزْو مصر مجددًا والقضاء على أي وجود لهم هناك، وذلك عن طريق إعادة النظام والاستقرار في مصر[١].

رغم ذلك فقد أكدت الحكومة العثمانية رفضها التام، بإجماع الآراء، عرْض ملك بريطانيا للوساطة من أجل إيجاد تسوية سلمية بين السلطان العثماني والبكوات المماليك، كما رفضت الحكومة العثمانية تدخُّل ملك بريطانيا في شئون مصر، وقد وعد ريس أفندي ستراتون تسليمه مذكرة رسمية بهذا المضمون في غضون بضعة أيام[٢]. وأشار ستراتون إلى ما أخبره به ريس أفندي عن سبب رفْض السلطان العثماني الإذعان إلى رغبة ملك بريطانيا جورج الثالث في التدخل والوساطة لتسوية الخلافات بين الباب العالي والبكوات المماليك في مصر، فعلى الرغم من ثقة السلطان والحكومة العثمانية في النيات الحسنة لملك بريطانيا وحرصه الصادق على وحدة الدولة العثمانية، فإنهم لا يستطيعون قبول عرض ملك

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 Feb. 1804, No. 10.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 2 March 1804, No. 12.

بريطانيا حتى لا تختلط الأمور ، خاصة بعد أن تمَّ التوصل إلى تسوية مع البكوات المماليك بشروط تتفق مع رغباتهم وما كانوا يَطْمَحون إليه . ويضيف ستراتون أن الحكومة العثمانية تخشى غضب نابليون بونابرت ـ الذي رُفِضَتْ وساطته هو الآخر ـ إذا ما قُبِلَتْ وساطة ملك بريطانيا ، وهو ما لم يُصرِّح به ريس أفندي[١] .

تعيين خورشيد باشا واليًا على مصر

أرسل ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ١٠ من مارس ١٨٠٤م يخبره بأن الباب العالي قد أرسل سفينة حربية إلى الإسكندرية للعودة بتقرير دقيق عن الأحداث هناك ، وأنه من المقرَّر إرسال أربع سفن حربية أخرى تحمل ألفًا من خيرة القوات العثمانية لتعزيز حامية الإسكندرية ، وأشار ستراتون إلى القرار الذي اتخذتْه الحكومة العثمانية بتعيين والي عَكَّا أحمد باشا الجزار نائبًا للسلطان في مصر خلفًا لعلي باشا الذي وافَتْهُ المَنِيَّة[٢] ، كما أخبر ستراتون هوكسبري بقيام السفير الفرنسي في إستانبول برون بحضور اجتماع مع بعض الوزراء في الحكومة العثمانية ، حيث ناقشوا بشكل واسع شئون مصر ، وذلك بعد محاولات عدَّة لإثبات أن رُؤى بريطانيا بشأنمصر متطابقة مع مصالح السلطان ، وأن رُؤى فرنسا كانت إلى حدٍّ كبير معتدلة هي الأخرى بشأن رغبات ملك بريطانيا ، لذلك فقد تقدَّم الجنرال برون بعرض رسمي للوساطة بهدف الوصول إلى اتفاق بين البكوات المماليك والدولة العثمانية[٣] .

أمَّا دراموند في رسالته إلى هوكسبري بتاريخ ١٦ من مارس ١٨٠٤م فقد أكَّد أنه لا يعرف شيئًا عن ميسيت ، الذي تمَّ تعيينه في السابق مقيمًا لبريطانيا في مصر ،

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 March 1804, No. 15.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 24 March 1804, No. 19.

(٣) F. O. 78-42, W. Drummond to Hawkesbury, Berlin, 16 March 1804, Private.

لكنه يعلم أن بقاءه في مصر غير مرغوب فيه من قِبَل الباب العالي ، وأن الشعور بالغيرة - الذي يتصف به ميسيت - سوف يعيق العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية ، وأنه من الصعب عليه أن يُقنِع الوزراء العثمانيين بعكس ذلك[١] ، وبَعْد أقل من أسبوع أعاد دراموند إلى هوكسبري التعبيرَ عن وجود بعض الصعوبات ، التي يَعْتَقد حدوثها ، وذلك في إشارة واضحة لبقاء ميسيت في مصر ، خاصة بعد وصول تشارلز لوك الذي شغل منصب القنصل العام البريطاني في مصر . أمَّا المسألة الأخرى فهي أن القنصل الفرنسي في مصر قد كسب وُدَّ بعض البكوات المماليك عن طريق شرائهم بالمال ، وأن تشارلز لوك إذا لم يستطع توفير ٤ آلاف جنيه لشراء البكوات المماليك الآخرين بالطريقة نفسها فإن مهمته في مصر لن يُكتَب لها النجاح[٢] .

ذَكَر ستراتون أن بعض الوزراء في الحكومة العثمانية دعوه إلى اجتماع في ١٩ من مارس ١٨٠٤م ، حيث أخبروه بترشيح أحمد باشا الجزار لكي يخلُف علي باشا بصفته حاكمًا على مصر ، وأن هؤلاء حاولوا أن يشرحوا الأسباب التي دفعت الباب العالي إلى هذا «الاختيار الغريب» من وجهة نظر ستراتون ، وهي أسباب لا تتعلق بالسياسة العثمانية السليمة ، لكن لأسباب خاصة بمصر[٣] ، لكن قرار الدولة العثمانية سرعان ما تغيَّر بسبب وفاة أحمد باشا الجزار في ٢٣ من أبريل ١٨٠٤م ، حيث تمَّ تعيين أحمد خورشيد باشا حاكمًا لمصر من قبل السلطان العثماني[٤] .

كان محمد علي زعيم الألبان يراقب الأحداث التي تَعْصِف بمصر ، خاصة النزاع بين الدولة العثمانية والبكوات المماليك ، وعمل جُلَّ جهده بأقصى طاقته من

---

(١) F. O. 78-42, W. Drummond to Hawkesbury, Berlin, 21 March 1804, Private.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 24 March 1804, No. 20.

(٣) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 May 1804, No. 31.

(٤) F. O. 78-42, E. Missett to A. Stratton, Alexandria., 4 April 1804.

أجل الإفادة من هذه الأحداث من أجل تعزيز مركزه السياسي ونفوذه في مصر، وبالفعل فقد تمكَّن محمد علي والجنود الألبان الذين يعملون تحت إمرته من السيطرة على القاهرة وإجلاء البكوات المماليك منها، وهذا ما أثار حفيظة ميسيت، الذي أرسل إلى ستراتون رسالة في ٤ من أبريل ١٨٠٤م يُخبِره فيها أنه يشك في أن قائدَي الألبان، وهما محمد علي وحشمت بك، قد خضعا للمصالح الفرنسية، وأن الأحداث التي تلت ذلك لا تترك أي شك في مثل هذه الحقيقة، وأن خورشيد باشا الحاكم الفعلي لمصر قد أُجْبِرَ من قِبَل القائدَين سابقَيالذكر على التراجع عن وعوده بتعيين بعض الضباط العثمانيين مِن المُفتَرَضِ فيهم أنهم أصدقاء لبريطانيا العظمى[١].

وبينما كان محمد علي يعزِّز نفوذه في مصر وقع انشقاقٌ في صفوف البكوات المماليك بسبب الرُّتَب الخاصة بالقيادة العسكرية بين الألفي بك وعثمان بك البرديسي، إذ انقسم البكوات المماليك بين الطرفين[٢]. كما أوضح ستراتون أن هناك حادثة ذات أهمية وخطورة قد حدثت في مصر؛ حيث وصلت أخبار إلى الوزراء العثمانيين بأن بعض الجنود الألبان عرضوا خدماتهم على خورشيد باشا، وأنريس أفندي ـ ناظر الخارجية العثماني ـ أرسل إلى الأخير يُخبِره أن الجنود الألبان بقيادة محمد علي بعد أن ذبحوا كل البكوات المماليك ومساعديهم في القاهرة قد قرروا القضاء على كل قادة المماليك في مصر[٣]، وأبدى ستراتون ثقته بصحة هذه الأنباء؛ حيث قال: «إنني لا أستطيع الشك في هذه المعلومات، ويبدو أن معلومات الباب العالي كانت منبثقةً من زعماء الألبان، الذين كانت مصالحهم

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 8 April 1804, No. 21.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 April 1804, No. 23; F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 April 1804, No. 24.

(٣) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 April 1804, No. 24.

أكثر أهمية من أن يُرسِلوا تقارير مبالغًا فيها عن إنجازاتهم»[١] .

ومهما كانالأمر، فقد كان هناك صراعٌ على السلطة بين الأتراك والبكوات المماليك والألبان في مصر، خاصة أن كلًا من زعيم الألبان محمد علي وحاكم مصر العثماني خورشيد باشا قد أعلن نفسَه «خديوي لمصر» ؛ مما دفع بريطانيا إلى الإعلان رسميًا أنها لن تتعامل إلا مع ممثل الباب العالي[٢] ، لذلك فقد طلب محمد علي وساطة السفير الفرنسي في إستانبول برون، لكي يحصل على منصب الخديوي[٣] ، خاصة بعد ازدياد انهيار سلطة البكوات المماليك[٤] ، لكن الباب العالي لم يكن قد اتخذ قراره بعد بشأن هذا الأمر[٥] .

عمل البكوات المماليك بسرعة من أجل ترتيب أوضاعهم وإعادة نفوذهم في مصر ولو جزئيًا ؛ إذْ نجحوا في احتلال الكثير من المواقع المهمة في مصر من جديد، خاصة بعد الوفاق الذي تمَّ بين الألفي بك وعثمان بك البرديسي، كما استطاع البكوات المماليك التغلُّب على القوات العثمانية في الكثير من المعارك، وذلك بسبب قلة المؤَن والمياه والجند والخيول، وضعْف الروح المعنوية للجنود العثمانيين[٦] .

---

(١) F. O. 24-2, *Lock to Hawkesbury,* Malta, 31 May 1804, No. 1.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Buyukdere. 10 July 1804, No. 43.

(٣) F. O. 24-2, Lock to Hawkesbury, Pera, 19 July 1804, No. 3.

(٤) F. O. 78-42, Stratton to Hawkesbury, Buyukdere, 8 Aug. 1804.

(٥) F. O. 78-48, *Extract of a letter from Major Missett to Stratton,* Rosetta, 18 Jan, 1805.

(٦) HUNTER, F. ROBERT, *Egypt Under the Khedives,* 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy, Cairo-American University of Cairo, 1999, p.14; CRABITES, PIERRE, Ibrahim of Egypt, New York: Routledge, 1935, p.1-2.

تعيين محمد علي واليًا على مصر

كان واقع الحال في مصر يُظهِر أن زعيم الألبان محمد علي الرجل الأقوى في مصر، وهو القادر على لَجْم تحركات البكوات المماليك وطموحاتهم في مصر؛ لذلك قام شيوخ الشعب المصري وأعيانهم بمبايعته في دار المحكمة ليكون واليًا على مصر في ١٧ من مايو سنة ١٨٠٥م، وأمام حُكم الأمر الواقع أصدر السلطان العثماني سليم الثالث فرمانًا سلطانيًا في ٩ من يوليه ١٨٠٥م بعزْل خورشيد باشا وتولية محمد علي على مصر[١].

كان محمد علي يواجه الكثير من التحديات في مصر، وكان أهم هذه التحديات وجود البكوات المماليك بزعامة الألفي بك، ولم يمضِ سوى ثلاثة أشهر على تعيين محمد علي واليًا على مصر حتى قرر البكوات المماليك مهاجمة القاهرة، لكنَّ محمد علي باشا استدرجهم إلى كَمِينٍ مُحْكَمٍ وهزمهم، وعلى الرغم من بقاء الوجه البحري تحت سيطرة محمد علي باشا فإن الوجه القبلي ـ الصعيد ـ كان لا يزال يخضع للبكوات المماليك، الذين بلغ عددهم حوالي ١٥٠٠ جندي، منقسمِين إلى ثلاثة أقسام رئيسية تحت قيادة كلٍّ من الألفي بك، وعثمان بك البرديسي، وعثمان بك حسن، وكانت الحاجة إلى الوحْدة بين قوات البكوات المماليك قد منعتْهم من أن يقطفوا ثمار أيَّة فوائد من تفوُّقهم في الميدان على القوات العثمانية[٢].

كانت هذه الفوضى التي تَعْصِف بمصر قد دفعت الباب العالي إلى أن يطلب من الألفي بك إرسال مبعوث يمثله ليناقش مع الوزراء العثمانيين كيفية إعادة الهدوء

---

(١) F. O. 24-2, *Missett to Mulegre,* Alexandria, 1 Jan. 1806.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 22 March 1806.

إلى مصر، إلا أن الألفي بك أعلن أن مصر لن يعود إليها الهدوء إلا بعد إعادة تأسيس حكومة المماليك[١]، الأمر الذي رفضته الدولة العثمانية ومحمد علي باشا على السواء؛ مما أدى إلى استئناف العمليات العسكرية من جديد، حيث هَزَمَ الألفي بك في الفيوم ٥ آلاف من القوات الألبانية التابعة لمحمد علي باشا، التي انسحبت إلى جنوب الجيزة، الأمر الذي أثَّر كثيرًا على محمد علي باشا وجعله يضع كل القوات المتبقية في القاهرة تحت إمرة الضابط الرئيسي في بلاطه، وعلى الرغم من ذلك فقد هُزِمت قوات محمد علي باشا مجددًا، وفرَّت قواته جنوبًا إلى بني سويف أمام قوات الألفي بك الزاحفة نحو الجيزة[٢].

لذلك قام الألفي بك بإرسال رسالة إلى حكومة بريطانيا عبْر ميسيت بتاريخ ١٣ من مايو ١٨٠٦م؛ جاء فيها: «... نحن نتطلَّع إلى مساعدة الحكومة البريطانية، ونحن جميعًا، وأولادنا والبكوات والمماليك والعرب، واثقون من أن مصالح حكومة جلالة الملك تتضمن مصالحنا، وإلا فلن يكون لدينا أمل بأن نرى مصالحنا قد تحققت، كما أننا نتطلَّع إلى أن الحماية، التي نحظى بها، سوف تستمر إلى الأبد»[٣]، وكان واضحًا من هذه الرسالة أن الألفي بك كان لا يزال يراوغ في علاقته مع الدولة العثمانية من خلال علاقته ببريطانيا، حيث طلب مجددًا وساطة بريطانيا بينه وبين الدولة العثمانية، لكن السفير البريطاني الجديد في إستانبول تشارلز أربثنوت CHARLES ARBITHNOT (١٨٠٤ - ١٨٠٧م) كان واثقًا في ذلك الوقت «بأن الباب العالي لن يرضى على الإطلاق عن مثل هذه الوساطة، وأن الأحداث أثبتت أن هذا الظن لم يكن على خطأ»[٤].

---

(١) F. O. 24-2, *Missett to Mulegare,* Alexandria., 10 May 1806.

(٢) F. O. 78-50, *Translation of a letter by Elfi Bey to Major Missett,* 13 May 1806.

(٣) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Missett,* Pera, 5 June 1806.

(٤) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Pera, 6 June 1806, No. 27.

وبالرغم من ذلك فإن أربثنوت قد أكَّد في ٦ من يونيه ١٨٠٦م وصول مندوب من قِبَل الألفي بك للتفاوض والحوار مع الدولة العثمانية ، وتحدَّث أربثنوت عن المحاولات التي قام بها هذا المندوب من أجل أن يقوم أربوثنوت بدور الوسيط بين البكوات المماليك والباب العالي ، لكن أربوثنوت عبَّر له عن رأيه الشخصي مجددًا بأن الباب العالي لن يقبل على الإطلاق قبول مثل هذا العرض[١] .

وبينما كان البكوات المماليك يحاولون التفاوض مع الدولة العثمانية ، كانت قوات الألفي بك لا تزال تحقِّق الانتصارات على الأرض ضد قوات محمد علي باشا في مصر ، حيث وصلتْ معلومات يقينيَّةتؤكِّد أن الألفي بك قد دخل القاهرة وأن محمد علي باشا قد فرَّ إلى القلعة ومعه ٦٠٠ من أتباعه ، في الوقت الذي وصل قبطان باشا أمير البحر العثماني إلى الإسكندرية ، لذلك فقد ساد الاعتقاد لدى البعض بأن هذا هو أفضل وقت للباب العالي من أجل إرجاع سلطة البكوات المماليك في مصر[٢] ، بعد انسحاب القوات الألبانيَّة ، لكنَّ جميع الآمال بانسحاب القوات الألبانية من مصر وإعادة امتيازات البكوات المماليك ذهبَتْ أَدْرَاج الرياح ؛ حيث وصل ضابط من ضباط محمد علي باشا ومعه خطاب إلى قبطان باشا ، جاء فيه أن القوات الألبانية التي عاشت في مصر لمدة طويلة ليست راغبة في هجرة أوطانهم وأسرهم ، وانطلاقًا منأنَّ قبطان باشا لا ينوي القيام بأي عمل عدائي ضد محمد علي باشا ، فإنه أرسل خطابًا إلى الباب العالي في إستانبول لتلقِّي المزيد من التعليمات[٣] .

ولقد صدرت الأوامر من الباب العالي إلى قبطان باشا بألَّا يتعجَّل نتيجة الاتفاق مع البكوات المماليك ، بينما اعتبر ميسيت أن الأغلبية العظمى من الشعب

---

(١) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 10 July 1806, No. 41.

(٢) F. O. 78-50, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 14 July 1806.

(٣) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 31 July 1806, No.

المصري تدرك أن قبطان باشا قد جاء إلى مصر من أجل إرجاع سلطة البكوات المماليك على ما كانت عليه من قَبْل، وأن محمد علي باشا يبذل أقصى ما في وُسْعِهِ لمنْع تحقيق هذا الأمر[١].

مهما كان الأمر فقد وصلت أخبار جديدة تفيد بأن الألفي بك حقَّق انتصارًا آخر على قوات محمد علي باشا، وذلك في ٣١ من يوليه ١٨٠٦م بالقرب من قرية النجيلة على الضفة الغربية من نهر النيل، وكانت هزيمة جيوش محمد علي باشا في هذه المعركة شبه تامة لدرجة أن المدافع والأمتعة والخيام والخيول والجِمَال الخاصةبقوات محمد علي وقعَتْ في أيدي قوات البكوات المماليك بقيادة الألفي بك[٢].

كانت انتصارات الألفي بك قد أربكت الساحة السياسية في مصر؛ حيث كتب أربوثنوت بأنه ليسَتْ لديه أيَّة فكرة عن الإجراءات التي سيتخذها الباب العالي تجاه الوضع في مصر، خاصة أنه لا توجد أيَّة إجراءات فعَّالة تقوم بها الدولة العثمانية من أجل استعادة سلطتها في مصر[٣].

كان ميسيت قد أفاد بأن الباب العالي طلب من محمد علي باشا الجلاء عن مصر مرتَيْنِ، وكان رد محمد علي باشا للوهلة الأولى أنه مستعدٌّ للجلاء عن مصر، لكن سكان القاهرة الذين كانوا مقتنعين به لم يسمحوا له بمغادرتها، وأن هذه هي العقبة الحقيقية في عدم قيامه بتنفيذ الأمر، وكان محمد علي باشا قد استمال ـ بذكاءٍ ـ بعضَ الشخصيات المهمة والمؤثِّرة في مصر مثل العلماء والمشايخ والأعيان، الذين قاموا برفْع الكثير من العرائض ـ بناء على طلبه ـ التي تُثْني على محمد علي باشا، إلى قبطان باشا والباب العالي، وذكر ميسيت أنه في حالة نجاح

---

(١) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 3 Aug. 1806.

(٢) F. O. 78-51, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 8 Sep.1806.

(٣) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 10 Sep.1806.

محمد علي باشا في جمْع الأموال وإرسالها إلى إستانبول ، فإن ذلك سيكون في صالحه جنبًا إلى جنب مع العرائض ، التي رفعها السكان والشخصيات المهمة إلى الباب العالي التي تُثْني عليه[١] .

كان الألفي بك قد حاصر دمنهور بعد هزيمة جيوش محمد علي باشا ، لكنه سرعان ما رفع حصاره عنها بسبب رفْض قبطان باشا تزويده بالذخيرة ، مما يعني أن الدولة العثمانية قد غيَّرت في عِدَّة مرات من تحالفاتها في مصر ، ويعتبر ميسيت أن تَغيُّر موقف قبطان باشا كان نتيجة وصول ضابط من طرف محمد علي باشا ومعه هدايا ثمينة له ، ولقد عَلِم ميسيت أنه نتيجة للقلاقل الخطيرة في إستانبول فقد قام الباب العالي بإصدار الأوامر إلى قبطان باشا بالعودة فورًا إلى إستانبول ، في الوقت الذي استمرت فيه الصدامات العسكرية بين البكوات المماليك ومحمد علي باشا ، لكن الأخير كان لا يزال يتلقَّى الإمدادات العسكرية مما جعله يُعزز مكانته من جديد بعد كل هزيمة ، بينما كان البكوات المماليك يجهلون فن الحصار العسكري ممَّا كان يُفقِدهم ميزة كبرى[٢] .

ذَكَرَ ميسيت أن الألفي بك ، بعد انحياز قبطان باشا إلى محمد علي باشا من جديد ، أبدى رغبته في الدخول في مفاوضات جديدة مع الباب العالي ، وذكر ميسيت أن الحكومة الفرنسية تعارض أيَّة خطة يمكن من خلالها إعادة الهدوء والنظام إلى مصر ، في الوقت الذي تُظهِر فيه كثيرًا من الود تجاه محمد علي باشا ، وذكر ميسيت أنه في ظل الظروف المستجدة فإن محمد علي باشا سوف يتمكَّن من تعزيز سلطته في مصر[٣] ، وهو ما اعتبره أربثنوت ميزة لصالح الفرنسيين[٤] .

---

(١) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 18 Sep.1806.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 25 Sep.1806.

(٣) F. O. 78-51, *Charles Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 30 Sep.1806, No. 69.

(٤) F. O. 24-2, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 17 Nov. 1806.

وافق الباب العالي على إعطاء البكوات المماليك صعيد مصر فقط للإقامة فيها ، لكن البكوات المماليك لم يقبلوا هذا العرض[١] ، وكان واضحًا أن رهان البكوات المماليك على بريطانيا لتحقيق آمالهم قد خاب ، لذلك كانت لديهم توجهات جديدة من أجل تحقيق هذه الآمال والطموحات من قِبَل روسيا وليس من خلال بريطانيا ، وأنهم من خلال ذلك سوف يحصلون على ما يريدون ، وسيكُونون في وضع أفضل من وضعهم الذي كان سابقًا مع بريطانيا[٢] .

كانت الأوضاع التي بدأَتْ تسير في مصر لغير صالح البكوات المماليك قد دفعت الألفي بك إلى الإعلان عن أنه سيقوم بالتفاوض مع محمد علي باشا بغرض إحلال السلام في مصر ، إلا أنه سرعان ما غيَّر رأيه وأصبح من أنصار الحرب من جديد على محمد علي باشا ، وقد يكُون الأمل في مساعدة روسيا سببًا من أسباب تغييره قراره[٣] ، في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء عن وفاة عثمان بك البرديسي ، حيث عبَّر الألفي بك عن «حزنه» لوفاته ؛ لكنه قال إنَّ وفاته ربما كانت عقابًا له بسبب عداوته له ، حيث كان من رأي الألفي بك أن وفاة عثمان بك البرديسي قد تُعجِّل بدخوله إلى القاهرة ، التي كان قد أُخرِج منها ، إذْ إنَّ باقي المماليك ، طبقًا لزعْم الألفي بك ، يدينون بالولاء له ، مما يُسهِّل عملية الاستيلاء على القاهرة في وقت قصير ، وذلك بغرض إعادة الاستقرار إليها ، كما اعتبر الألفي أن الأموال التي أرسلها محمد علي باشا إلى الباب العالي قد جمعها من سلْب السكان المصريين والقرويين ونهبهم[٤] .

---

(١) F. O. 78-55, *Petrucci (British Agent at Rosetta) to Missett.* Rosetta. 23 Nov. 1806.

(٢) F. O. 78-55, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 26 Nov. 1806.

(٣) F. O. 78-55, *Mehmet Bey Elfi to Missett,* 30 Nov. 1806, Translation.

(٤) F. O. 78-55, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alex., 2 Dec. 1806.

ومهما كان الأمر ، فقد اعتبر الألفي بك أن موْت عثمان بك البرديسي سيضع نهاية للخلافات الموجودة بين البكوات المماليك ، لكنَّ ميسيت كان يرى أن العكس هو الصحيح ، على الرغم من أن جميع المماليك كانوا يرغبون في أن يكون الألفي بك زعيمًا لهم ، كما أن موت عثمان بك البرديسي لم يكن مُفرِحًا للألفي بك فقط ؛ بل لجميع أعداء المماليك في إستانبول ، حيث كان عثمان بك البرديسي من الشخصيات المؤثِّرة في مصر[١] ، وربما كان موت عثمان بك البرديسي قد بعث على الاعتقاد لدى محمد علي باشا بقدرته مجددًا على قتال البكوات المماليك ، لذلك قام بإعداد العدَّة للقيام بهجوم على الألفي بك ، حيث عَبَرَ جيشه نهر النيل وعسكر في الضفة الشمالية منه في منطقة إمبابة ، وقد أعلن محمد علي باشا رسميًا أنه سوف يتولى قيادة تلك القوات ، أمَّا الألفي بك ، الذي يبدو أنه وجد أن قواته وأسلحته غير كافية لمواجهة القوات الضخمة التي حشدها محمد علي باشا ، فقد ترك البحيرة وانسحب إلى الفيوم ، بحيث يستطيع تلقي الدعم من البكوات المماليك في صعيد مصر ، ويوضح ميسيت أن قوات الألفي بك ، خاصة البدو ، كانوا غير مقتنعين به ، وأن الأخير كان يعلم ذلك جيدًا ، لذلك فهو لا يريد أن يدخل المعركة وتتخلى عنه قواته وقت الخطر[٢] ، وهذا ما دفع الألفي بك إلى طلب مساعدة ممثلي بريطانيا مجددًا للتدخل بينه وبين الدولة العثمانية ، إلا أن تعليمات حكومة بريطانيا لممثليها ـ خاصة ميسيت ـ جاءت تنص على أن تكون مشاركتهم في النزاعات بين القوى المختلفة في مصر في أضيق نطاق[٣] .

---

(١) F. O. 78-52, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alex., 31 Dec. 1806.

(٢) F. O. 78-55, *Charles Arbuthnot to Viscount Howick,* Pera, 15 Jan, 1807, No. 5.

(٣) F. O. 78-56, *Missett to Arthur Paget,* Alexandria, 22 Aug. 1807.

وفاة محمد بك الألفي

تُوُفِّيَ الألفي بك في ٢٨ من يناير ١٨٠٧م في أثناء عودته إلى الصعيد، الأمر الذي بعث على السعادة لدى محمد علي باشا، لأن ذلك أسهم بشكل كبير في إضعاف قوة البكوات المماليك، وساعد في وقوع معظم مدن مصر في أيدي محمد علي باشا، بينما بقيت الإسكندرية في يد حاكمها العثماني، الذي امتاز بسَعَةِ عقله وحكمته، ولقد بُذِلَت الكثير من المحاولات من قِبَل محمد علي باشا بمساعدة «العملاء» الفرنسيين ـ من أجل السيطرة على الإسكندرية، لكنَّ حَزْم حاكمها وممثلي سكانها الرافضين سيطرة الألبان عليهم ممَّا مثَّلَ خيبة أمل لمحمد علي باشا، وعندما دارت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية (١٨٠٦ ـ ١٨١٢م) استغل محمد علي باشا الفرصة لإدخال حامية من قواته إلى الإسكندرية، لكنها قُوبِلت بمقاومة عنيفة من قِبَل السكان[١].

حملة فريزر FRASER على مصر ١٨٠٧م

وَجَّهَتْ بريطانيا حملة من ٥ آلاف جندي بقيادة ألكسندر ماكينزي ـ فريزر ALEXANDER MACKENZIE - FRASER (١٧٥٨ ـ ١٨٠٩م)[٢]، من أجل احتلال الإسكندرية لتأمين قاعدة عمليات لها في مصر، بصفة ذلك جزءًا من استراتيجية أكبر ضد التحالف الفرنسي العثماني، الذي أخذ في التبلوُر منذ

---

(١) SCOTT, WALTER, *The Life of Napoleon Bonaparte, Emperor of the French: With a Preliminary View of the French Revolution,* Edinburgh-Cadell, 1827, Vol. II, p.141.

(٢) OLSON, JAMES S-SHADLE, ROBERT. (ed.), *Historical Dictionary of the British Empire,* Westport-Greenwood Publishing Group, 1996, p.25.

انسحاب الحملة الفرنسية من مصر[١]، حيث أنزلت حملة فريزر جنودها على شاطئ العجمي بالإسكندرية في ١٧ من مارس سنة ١٨٠٧م، ثم زحفت لاحتلال الإسكندرية، حيث سلّمها له حاكمها أمين أغا دون مقاومة، فدخلها الإنجليز في ٢١ من مارس ١٨٠٧م[٢]، وعندها قرّر فريزر احتلال مدينة رشيد من أجل قطْع طرق التعزيزات، التي قد تأتي إلى الإسكندرية عبر نهر النيل[٣]، فقد دفع ذلك حامية مدينة رشيد بقيادة علي بك السلانكي والأهالي إلى الاتفاق على استدراج القوات البريطانية لدخول المدينة دون مقاومة، حتى إذا دخلوا شوارعها الضيقة انهالت النار عليهم من الشبابيك وأسقف المنازل، ولقد نجحت الخطة وانسحب مَن نجا من القوات البريطانية إلى أبو قِير والإسكندرية، بعد أن خسرت بريطانيا في تلك المعركة نحو ١٨٥ قتيلًا و٣٠٠ جريح، بالإضافة إلى عدد من الأسرى، في الوقت الذي واصلت فيه قوات محمد علي باشا إنهاك الجنود البريطانيين في أكثر من مكان داخل مصر[٤].

---

(١) *The Royal Military Panorama or Officer's Companion,* London-C. J. Parrengton, 1814, Vol. IV, p.219-20; BELL, JAMES, *A System of Geography, Popular and Scientific, Or a Physical, Political, and Statistical Account of the World and its Various Divisions,* Glasgow-Archibald Fullarton, 1832, Vol. III, p.313.

(٢) GOTT, RICHARD, *Britain's Empire: Resistance, Repression and Revolt,* London-Verso Books, 2011), p.173; TUCKER, SPENCER, C. (ed.), *A Global Chronology of Conflict: From the Ancient World to the Modern Middle,* California-ABC Pub., 2010, p.1055.

(٣) RUSELL, WILLIAM & JONES, WILLIAM, *The History of Modern Europe, With a View of the Progress of Society from the Rise of the Modern Kingdoms to the Peace of Paris in 1763,* New York-Harper & Brothers, 1839, Vol. III, p.520.

(٤) OLSON-SHADLE, *Historical,* p.26.

حاول فريزر مرات عدَّة السيطرة على رشيد ، لكن هذه المحاولات باءت جميعًا بالفشل ، بينما كان محمد علي باشا يعمل على تجميع قواته ، التي واصلت زحفها حتى حاصرت الإسكندرية[١] ، وبعد مفاوضات بين فريزر ومحمد علي باشا تمَّ عقد الصلْح بينهما بتاريخ ١٤ من سبتمبر ١٨٠٧م ، الذي نص على وقْف القتال في غضون ١٠ أيام ، وإطلاق الأسرى الإنجليز[٢] ، على أن تُخْلِيَ القوات البريطانية المدينة[٣] . وبالفعل فقد أخلت القوات البريطانية الإسكندرية ورحلت إلى صقليَّة في ٢٥ من سبتمبر ١٨٠٧م . وبذلك تخلَّص محمد علي من واحد من أكبر المخاطر التي كادت أن تطيح بحكمه في مصر[٤] .

محمد علي باشا وسياسة التحالف مع بريطانيا

كان من الواضح أن محمد علي باشا استطاع أن يُعزِّز نفوذه وسلطته بشكل كبير في مصر ، خاصة بعد فشل حملة فريزر ، حيث قال ميسيت في ٢١ من أكتوبر ١٨٠٧م إن مدينة الإسكندرية تمَّ إخلاؤها من قِبَل القوات البريطانية بعد أن استسلمَتْ لمحمد علي باشا طبقًا للاتفاق الذي تم بينه وبين فريزر ، وأكد ميسيت الموقف الذي وصلَتْ إليه الأمور بين بريطانيا والدولة العثمانية ؛ حيث قال : «إن العداوة بين بريطانيا العظمى والباب العالي لم تتوقف حتى بعد إخلاء الإسكندرية[٥] ،

---

(١) YOUNG, GEORGE, *Egypt,* (New Jersey: Gorgias Press, 2002), p.39.

(٢) HARRISON, ROBERT T, *Gladstone's Imperialism in Egypt,* Westport: Greenwood, 1995, p.33; OLSON-SHADLE, *Historical,* p.25-26.

(٣) SCOTT, *The Life,* Vol. I, p.466; Harrison, Gladstone's, p.33.

(٤) F. O. 24-3, *Missett to George Canning,* Messina. 21 Oct. 1807.

(٥) F. O. 78-62, *From Lord Collingwood to Mehmet Ali Pacha of Egypt.* 16 Oct. 1808.

على الرغم من أن ملك بريطانيا جورج الثالث أعلن عن رغبته في أن يسود السلام جميع أرجاء العالم، مؤكدًا أنه تُوجَد صداقة وطيدة وتحالف بين بريطانيا والباب العالي منذ أَمَدٍ بعيدٍ، وأنه يَوَدُّ أن تظل هذه الصداقة لما فيه صالح الدولتين[١]. وبينما كانت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية تسوء بسبب حملة فريزر وموقف بريطانيا السابق من البكوات المماليك، تسلَّمت بريطانيا خطابًا من محمد علي باشا يُعرِب فيه عن رغبته في أن يُصبح حليفًا لبريطانيا، داعيًا إياها لإبرام معاهدة سلام وصداقة معها بعد الاستقلال عن الباب العالي، وحسب هذه الوثيقة فإن محمد علي باشا كان يريد من التحالف مع بريطانيا المحافظة على حُكمه وحياته، حيث كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا ـ المعروف باسم بيرقدار مصطفى باشا ـ يُعَدُّ من أشد أعداء محمد علي باشا، وحسب المصادر البريطانية فإن الصدر الأعظم كان يعمل من أجل التخلُّص منه، لذلك فقد بذل جُلَّ جهده من أجل منْع إقامة علاقات بين محمد علي باشا وبريطانيا، لكن الصدر الأعظم سرعان ما وافَتْهُ المَنِيَّة؛ مما أدى إلى انخفاض حِدَّة القلق عند محمد علي باشا[٢].

لم يكن محمد علي باشا وحده الذي يرغب بالاستقلال عن الدولة العثمانية والتحالف مع بريطانيا؛ حيث تلقَّتْ بريطانيا خطابات عدَّة من البكوات المماليك يُعلِنون فيها رغبتهم في أن يكونوا حلفاء لبريطانيا من جديد، ويطلبون أن يوقِّعوا معها معاهدة سلام وصداقة مع الاستقلال عن الدولة العثمانية، وقد طلب البكوات المماليك مساعدات وذخائر من بريطانيا، وإذإن كلًا من محمد علي باشا والبكوات المماليك تربطهم روابط «صداقة» مع الباب العالي، فإن الأمر كان

---

(١) F. O. 78-67, *From Admiral Lord Collingwood to W. W. Pole,* 24 May 1809; F. O. 78-67, *From Admiralty Office to George Hammond,* 7 July 1809.

(٢) F. O. 78-67, *Correspondence of Patrucci,* British Agent at Alexandria, July 1809.

يتطلَّب السرية الكاملة، وكان غرض البكوات المماليك من الدخول في معاهدة سلام وصداقة مع بريطانيا تدعيم قوتهم في مصر. أمَّا سبب إقْدام محمد علي باشا على الدخول في تلك المعاهدة فهو الحصول على امتيازات تجارية من شركة الهند الشرقية في مصر[١].

ويبدو أن بريطانيا كانت ترغب بشكل جدي في تعميق علاقاتها مع محمد علي باشا؛ لذلك فقد بدأت، بالفعل، باتخاذ خطوات ملموسة في هذا الاتجاه، حيث تحدَّث السفير البريطاني الجديد في إستانبول ستراتفورد كاننج STRATFORD CANNING (١٨٠٩ - ١٨١١م) إلى وزير الخارجية البريطاني ماركيز ويلسلي MARQUES WELLESELY (من ديسمبر ١٨٠٩ - ٤ من مارس ١٨١٢م) بشأن المكاسب التي يمكن أن يجنيها الإنجليز بعد ذلك من جراء التفاهم مع محمد علي باشا، وأن أهمية مصر شيء معروف لا يحتاج إلى إثباتٍ، وأن الإنجليز مهتمون بمصر، وأنه يجب الإفادة من تلك الأهمية، وأكَّد كاننج تلقِّيه معلومات عن مواهب محمد علي باشا الواعدة ومكانته في مصر، وهذا يُظهِر شخصيته المحبَّة للمغامرة وسعْيه إلى أن يكون قويًا، وأن تزداد قوته وذلك بالقضاء على البكوات المماليك[٢].

مذبحة المماليك وتوطيد حكم محمد علي باشا

أراد محمد علي باشا القضاء نهائيًا على البكوات المماليك، الذين كانوا لا يزالون يشكِّلون خطرًا على حُكمه في مصر؛ لذلك لجأ إلى استراتيجية جديدة

---

(١) F. O. 78-73, *Stratford Canning to Wellesley,* Pera, 15 March 1811.

(٢) F. O. 78-73, *Account of the Massacre of the Mamlukes,* Stratford Canning to Wellesley, Pera, 1 May 1811.

تقضي بالتظاهر بمصالحتهم واستمالتهم بإغداق المال والمناصب عليهم، حتى يستدرجهم إلى العودة والإقامة في القاهرة، وبالفعل فقد استجاب الجانب الأكبر من المماليك لهذا الأمر، مفضِّلين حياة الرغد والترف على الحياة القاسية والمطارَدَة، التي يقوم بها محمد علي باشا ضدهم، وعندها دعا محمد علي باشا البكوات المماليك للاحتفال بتنصيب ابنه إبراهيم باشا على باشوية جدة وقائدًا على جيوش مصر المتوجِّهَة إلى القضاء على الثورة الوهَّابيَّة في نَجْد، حضر المئات من المماليك هذا الاحتفال بسبب وجود العديد من السفراء والقناصل، مما بعث على الطمأنينة والسكينة لديهم[1]. وتُظهِر وثيقة بريطانية كتبها ستراتفورد كاننج بتاريخ ١ من مايو ١٨١١م وصفًا دقيقًا لمذبحة القلعة، حيث قال: «لم يكن ما حدث في القلعة يومها سوى مأساة مروعة حقًا ومذبحة مدبرة لأكثر من ألف من المماليك بأمرٍ من محمد علي باشا، الذي جمع البكوات ومعظم مماليكهم في القلعة (عدا اثنين أو ثلاثة من البكوات كانوا لا يزالون في صعيد مصر، ومعهم ٨٠٠ من رجالهم تقريبًا) وذلك بحجة دعوتهم لحضور مراسم الاحتفال بتقليد ابنه باشوية جدة، وبعد أن ارتدى الباشا الشاب الخُلعة «العباءة» كان من المقرَّر تسيير موكبٍ عبر المدينة، فوجد الباشا ـ محمد علي ـ في ذلك الموكب بُغْيَتَه لتجميع قواته في القلعة دون أن يثير ذلك شكوك البكوات، الذين سبق أن وعدهم وأقسم لهم بأنه سوف يقوم بتأمين أرواحهم قبل دخولهم القاهرة. وفي اليوم المحدَّد احتشد الجميع في القلعة، وقام الباشا بإلباس ابنه الخِلْعَة، وبعدها صدرت الأوامر إلى الموكب بأن يتحرك، وفي الوقت نفسه صدر أمر سري بإغلاق أبواب القلعة، وبدعوى تكريمهم تمَّ وضع البكوات في قلب قوات الباشا، وتحرك الموكب قليلًا حتى دخل المماليك ممرًا طويلًا ضيقًا، حيث كان من المستحيل بالنسبة إليهم

---

(١) تؤكِّد هذه الوثيقة البريطانية غير المنشورة أن أحدًا من المماليك لم يَنْجُ من مذبحة القلعة، على خلاف بعض المصادر والمراجع التي ذكرت أن واحدًا فقط نجا من هذه المذبحة.

الدفاع عن أنفسهم، وفجأة قام الضابطان اللذان كانا على عِلْم بالخطة السرية بإصدار الأوامر لقواتهما بإطلاق النار على المماليك، وتردَّد قادة القوات للحظة غير مصدِّقين ما سمعوه، لكنَّ الأمر تكرر على مسامعهم فراحوا يطلقون النار على المماليك، الذين أحاط بهم الموت من كل جانب، وأخذ يحصدهم حصدًا فلم ينجُ منهم أحد من هذه المذبحة البشعة[1]. وكان مشهدًا دمويًا مروعًا حقًا يفوق كل وصْفٍ، وتم إرسال الجنود للبحث عن المماليك الذين لم يحضروا إلى القلعة مع البكوات كي يشاركوا رفاقهم مصيرهم المحتوم، وأُرسل جنود آخرون إلى القرى المحيطة للقضاء على أي مملوك يجدونه، كان الموت مصير المماليك أينما ثقفوا، فتُتْرَك جثثهم حيث كانت مصارعهم، واندفع الجنود إلى قصور البكوات والمماليك ومنازلهم ينهبون كل ما فيها ويحملون مَن فيها من حريم البكوات وخَدَمِهم، واستمر الحال هكذا على مدى ستة أيام، حتى توقفت المذبحة وآلة القتل عن الدوران، عندما لم يجد الجنود المزيد من المماليك كي يقتلوهم، وفرَّ عدد قليل جدًا من المماليك إلى صعيد مصر للانضمام إلى رفاقهم هناك، وقد بلغ عدد ضحايا مذبحة المماليك في القلعة وخارجها أكثر من ألف قتيل، وبلغت قيمة ما تمَّ نهْبُه عدة ملايين من القروش، حتى استبدت الرغبة في السلب والنهب بالجنود، فراحوا ينهبون كل ما يصادفهم من بيوت في طريقهم سواء كانت هذه البيوت للمماليك أم لغيرهم، حتى اضطر الباشا ـ محمد علي ـ إلى قتْل بعض رجاله دَرْءًا لشرورهم»[2].

ولقد أرفق كاننج مع رسالته تقريرًا لأحد البريطانيين، تصادف وجوده في القلعة إبان هذه المذبحة، ويقول كاتب الرسالة إن رؤوس المماليك بعد المذبحة

---

(1) F. O. 78-73, *Account of the Massacre of the Mamlukes, Stratford Canning to Wellesley,* Pera, 1 May 1811.

(2) *Loc. Cit.*

أُرسِلَتْ إلى إستانبول، لذلك يوجد شك بأن السلطان نفسه قد أعطى أوامره لاقتراف تلك المذبحة[١].

وبهذه المذبحة، التي دبَّرها محمد علي باشا في مصر، تشتَّتْ جموع المماليك وتفرقت ولم تقم لهم قائمة، وبذلك انتهت مشكلة المماليك نهائيًا، ودانت مصر كلها إلى حكم محمد علي باشا دون أي منافس حقيقي.

الخاتمة

يتضح من الدراسة أن البكوات المماليك فشلوا تمامًا في استرداد نفوذهم وسلطتهم في مصر، على الرغم من كل ما بذلوه من جهود حربية ودبلوماسية من أجل تحقيق هذا الأمر، ويعود ذلك الفشل إلى مقاومة الدولة العثمانية ومحمد علي باشا طموحاتِهم تلك بكل الطرق الممكنة، إضافة إلى تفرُّق البكوات المماليك وعدم وجود قيادة سياسية وعسكرية واحدة توجههم، كما أن عرْض البكوات المماليك خدماتهم وتحالفهم مع أكثر من قوة أوروبية تَقْبل الاعتراف بهم وباستقلالهم عن الدولة العثمانية قد أضعف ثقة هذه القوى فيهم، حيث آثرتْ هذه القُوى عدم التضحية بعلاقاتها مع الدولة العثمانية من أجل مشروع قد لا يُكتَب له النجاح، كما كان واضحًا قدرة الدولة العثمانية ومحمد علي باشا على التعامل مع البكوات المماليك وحصْر نفوذهم في أضيق نطاقٍ ممكنٍ على الرغم من كل ما خاضوه من حروبٍ، الأمر الذي انتهى بالقضاء على نفوذ البكوات المماليك بعد تدبير مذبحة القلعة، التي دبَّرها محمد علي باشا عام ١٨١١م.

---

(١) فرانسوا شاتليه وآخرون: تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت ـ معهد الإنماء العربي ١٩٨٤م، ٩٧؛ جليني تيذر: الفكر السياسي: الأسئلة الأبدية، ترجمة محمد مصطفى غنيم، القاهرة ـ الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ١٩٩٣م، ١٣؛ عبد الإله بلقزيز: إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، بيروت ـ دار المنتخب العربي ١٩٩٢م، ١٠٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق البريطانية غير المنشورة Unpublished British Documents

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

Public Record Office (P. R. O) Foreign Office (F.O)

اعتمدتُ في هذه الدراسة على الوثائق الموجودة في دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة National Library and Archives المتعلقة بمراسلات سفراء وقناصل بريطانيا العظمى مع وزارة الخارجية البريطانية ، في كلٍّ من :

TURKEY (The Ottoman Empire), F. O. 78.

EGYPT, F. O. 24.

ثانيًا : الكتب الإنجليزية

ANNESLEY, GEORGE, *The Rise of Modern Egypt. A Century and a half of Egyptian History 1798-1957,* Edinburgh- Pentland Press 1994.

BELL, JAMES, *A System of Geography, Popular and Scientific,* Or *A Physical, Political, and Statistical Account of the World and its Various Divisions* (Glasgow: Archibald Fullarton 1832), Vol. III.

CLEVELAND, WILLIAM L-BUNTON, MARTIN, *A History of the Modern Middle East,* Boulder - Westview Press 2009.

CRABITES, PIERRE, *Ibrahim of Egypt,* New York: Routledge 1935.

DODWELL, HENRY, *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali,* Cambridge - Cambridge University Press 1967.

GOTT, RICHARD, *Britain's Empire: Resistance, Repression and Revolt,* London: Verso Books 2011.

HARRISON, ROBERT, *Gladstone's Imperialism in Egypt,* Westport: Greenwood 1995.

HUNTER, F. ROBERT, *Egypt Under the Khedives, 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy,* Cairo-American University of Cairo 1999.

LITTEL, TOM, *Egypt,* New York - Frederick A. Praeger 1958.

MARSOT, AFAF LUTFIAL-SAYYID, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali,* Cambridge - Cambridge University Press 1994.

OLSON, JAMES - SHADLE, ROBERT, (ed.), *Historical Dictionary of the British Empire,* Westport-Greenwood Publishing Group 1996.

RUSELL, WILLIAM & JONES, WILLIAM, *The History of Modern Europe, With a View of the Progress of Society from the Rise of the Modern Kingdoms to the Peace of Paris in 1763,* New York - Harper & Brothers 1839, Vol. III.

SCOTT, WALTRE, *The Life of Napoleon Bonaparte, Emperor of the French: With a Preliminary View of the French Revolution,* Edinburgh - Cadell 1827, Vol. II.

The Royal Military Panorama or Officer's Companion, London - C. J. Parrengton, 1814, Vol. IV.

TUCKER, SPENCER, C, (ed.), *A Global Chronology of Conflict: From the Ancient World to the Modern Middle,* California - ABC Pub. 2010.

VATIKIOTIS, PANAYIOTIS, J., *The History of Egypt,* Baltimore - Orion Publishing Group 1985.

YOUNG, GEOEGE, *Egypt,* New Jersey - Gorgias Press 2002.

Obeikan.com